قيم ثقافة السلام في الديانات السماوية

◄سأنطلق في هذه المقاربة الأوّلية الهادفة إلى رسم معالم القيم المشتركة بين الأديان السماوية الثلاثة والتي من شأنها أن تساهم في إرساء ثقافة السلام في عالمنا المعاصر الذي يواجه الإنسان فيه تحدّيات شتّى، سأنطلق من قضية أصولية، قضية تنتمي إلى علم أصول الدّين في الإسلام: علم التوحيد أو أصول العقيدة من جهة، وأصول الفقه من جهة أخرى.

تدور مسائل علم التوحيد في الإسلام حول ثلاث موضوعات رئيسية: ذات ا، وصفاته، وأفعاله. والمسألة الأساسية التي يدور حولها الكلام في الموضوعين الأوّلين هي التنزيه: تنزيه ا عن كلّ مشابهة مع أي شيء آخر، انطلاقاً من قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى/ 11). والتنزيه يقتضي الكمال المطلق، وبالتالي الاستغناء المطلق عن كلّ شيء. وعندما انتقل المتكلمون إلى الباب الثالث في علم التوحيد، وموضوعه أفعال ا، كان لابدّ أن يلاحظوا أنّ من جملة أفعال ا، إضافة إلى خلقه العالم، أنّه يبعث رُسُلاً إلى الناس تدعوهم إلى عبادته. وفي هذا المجال طرح سؤال: لماذا يبعث ا الرّسُل إلى الناس ليطلب منهم عبادته وامتثال أوامره ونواهيه، وهو المنزه عن الحاجة إلى العبادة أو غيرها كما ورد في القرآن: (اَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران/ 97).

كان هناك مَن قال إنّ هذا سؤال غير مشروع لأنّ ا يفعل ما يريد ولا يجوز أن يسأل لماذا يفعل كذا أو لا يفعل كذا، بمعنى أنّ أفعال ا لا تعلل بل يجب أن تؤخذ أوامره ونواهيه كما هي وعلى الإنسان أن يمتثل وليس له أن يسأل عن القصد منها.

وفي مقابل هذا الرأي كان هناك رأي آخر يقول إنّ جميع أفعال ا هي لحكمة، وهو منزّه عن فعل شيء لا لحكمة ولا لغاية وقصد، لأنّه سيكون فعله من قبيل العبث. وا "حكيم" "لطيف" بعباده. ومن هنا قال أصحاب هذا الرأي إنّه لابدّ أن يكون هناك وراء أفعال ا، وفي مقدمتها بعث الرّسُل، حكمة، أي قصد وغاية. وإذا تقرر هذا عاد السؤال السابق ليطرح بشكل مشروع هذه المرة كما يلي: ما هو مقصد الشرع، أو ماذا يريد ا، من وراء إرسال رُسُل للناس؟

وبما أنّ الأمر يتعلّق برُسُل وأنبياء تعاقبوا منذ آدم، وليس برسول واحد، وبما أنّ الإسلام يدعو إلى الإيمان بجميع الرّسُل والأنبياء وفي مقدمتهم رُسُل وأنبياء الديانات السماوية الثلاث، فقد عمد علماء أصول الدّين في الإسلام إلى التماس الجواب لا من الدّين الإسلامي وحده بل من جميع الأديان السماوية. وهكذا قاموا باستقراء الغايات والأهداف والمقاصد التي تشترك فيها الأديان السماوية والتي تبرر بعثة الرّسُل، فوجدوها ترجع إلى مبدأ واحد، وهو أنّ جميع الديانات السماوية إنما تهدف من وراء مختلف تعاليمها، أوامرها ونواهيها، إلى شيء واحد، هو مصلحة الناس، مصلحة البشرية كلّها. ومن هنا برز الجواب عن السؤال الذي طرحوه: لماذا بعث ا الرّسُل؟ بعثهم من أجل أن يبيّنوا للناس منافعهم في الدنيا والآخرة.

هذا الجواب يطرح سؤالاً آخر هو الذي سينطلق بنّا مباشرة إلى موضوعنا. هذا السؤال هو: إذا كانت الديانات السماوية إنما جاءت لتقرير مصالح الناس، وما هي المصالح التي تشترك الديانات السماوية في تقريرها والدعوة إلى الحفاظ عليها؟

قام علماء أصول الدّين إذن باستقراء المصالح التي تشترك الأديان الثلاثة في تقريرها فوجدوها ثلاثة أصناف:

1- مصالح ضرورية لوجود الإنسان المادّي والمعنوي وسموها الضروريات: ضروريات الحياة.

2- مصالح يحتاج إليها الإنسان لاستقامة حياته مادّياً ومعنوياً وسموها الحاجيات.

3- مصالح ترتقي بحياة الإنسان نحو مزيد من السعة والفضل والتحلي بكلّ ما هو مفيد وحسن، وسموها التحسينات.

هناك فروق واختلافات بين الأديان الثلاثة في تقرير الحاجيات والتحسينات، ولكنّها تتفق كلّها في تقرير الضروريات، وهذا ما سنركّز عليه هنا.

وجد علماء الأصول أنّ الديانات الثلاث تتفق كلّها حول ربط الغاية من بعثة الرّسُل والمصالح التي تقرّرها شرائعهم بالضروريات الخمس التالية: حفظ النفس، حفظ العقل، حفظ النسل، حفظ المال، حفظ الدّين. وجعلوا من هذه الضرورات الخمس أصلاً للحاجيات والتحسينات والتكميلات.

أعتقد أنّ من جملة الموضوعات التي يمكن أن يهتم بها الحوار بين الديانات السماوية الثلاث من أجل بناء تصوّر مشترك لثقافة السلام موضوع الضرورات الخمس المذكورة. ذلك لأنّ هذه الضرورات، أعني حفظ النفس والعقل والنسل والمال والدّين هي أساس كلّ سلام وبدونها لا يتحقق السلام، لا السلام مع النفس ولا السلام مع الجار ولا السلام بين الأُمم. وفي هذا الصدد أرى أنّه بالإمكان تأسيس رؤية جديدة سلمية وسليمة للمشاكل والتحديات التي يواجهها الضمير الديني والأخلاقي في عصرنا، وذلك بالارتكاز على هذه الضرورات الخمس. وفيما يلي أمثلة:

1- ففي مجال حفظ النفس يمكن بناء تصوّر جديد لمفهوم "الحفظ" يستجيب لمتطلّبات عصرنا. إنّ الأصل في مفهوم "حفظ النفس" هو كف الأذى عنها مهما كان نوعه، والإذاية التي تلحق النفس البشرية تمتد على مسافة واسعة، لا نهائية الصغر ولا نهائية الكبر معاً: من الخبر المشؤوم والمنظر القبيح والكلمة غير الطيّبة والتمييز بجميع أشكاله، العرقي والديني والاجتماعي والاقتصادي والحقوقي… إلخ، إلى التعذيب والقتل الفردي والإثناء الجماعي… إلخ. لقد شرع ا في الديانات الثلاث أنّ النفس بالنفس، ولكن ليس انتقاماً ولا ثأراً، بل كبحاً للميول العدوانية وردعاً لها. فليس القصد الإلهي من "النفس بالنفس" أنّ القاتل يجب أن يُقتل انتقاماً أو ثأراً، بل إنّ القصد الإلهي أسمى من ذلك. إنّه تنبيه للناس إلى أنّ الذي يقتل غيره أو يهم بقتله هو كمن يقتل نفسه أو يهم بقتلها. ولذلك قرر الشرع (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلا خَطَأً) (النساء/ 92).

يدور الحديث اليوم حول "أسلحة الدمار الشامل". ولكن ما هو "الدمار الشامل"؟ هل هو الذي تقوم به القنبلة الذرية وحدها كتلك التي ألقيت على هيروشيما ونكازاكي مثلاً، أم أنّه القتل الجماعي سواء كان بقنبلة تلقى باليد أو تطلق من الطائرة أو من الصواريخ الموجهة البعيدة المدى التي تقلق من البواخر الحربية أو كان بالغاز أو بالجراثيم… إلخ.

إنّ حفظ النفس يجب أن يشمل ليس فقط نفس الفرد البشري من القتل الذي من هذا النوع الفردي والجماعي بل يجب أن يشمل في نظرنا توقيف العمل بعقوبة الإعدام، وهي عقوبة صار من الممكن الآن أداء القصد منها بالسجن المؤبد. فالسجن المؤبد لم يكن ممكناً في الأزمنة القديمة ولا في جميع المجتمعات، لأنّه يتطلب وجود دولة تتصف بالاستمرارية في مؤسساتها وقوانينها مما يجعل من عقوبة السجن المؤبد حُكماً بالإعدام مؤجل التنفيذ إلى حين حلول الأجل المحتوم. ويجب أن يشمل مفهوم حفظ النفس ليس فقط نفس الفرد البشري الواحد، بل أيضاً نفوس الجماعات والشعوب والأُمم. ومن هنا ضرورة منع الأسلحة التي تؤدي إلى القتل الجماعي مهما كان مستواها ونوعها.

باختصار تقرر الديانات السماوية الثلاث أنّ "الله خلق الإنسان على صورته". وحفظ النفس يجب أن يرقى إلى مستوى حفظ صورة الله، حفظها في الأفراد والجماعات والشعوب والأُمم.

2- هذا النوع من الفهم لـ"حفظ النفس" يتطلب عقلاً سليماً، عقلاً يعقل، يكبح ويحبس، الميول العدوانية في الناس مهما كان نوعها. ومن هنا ضرورة بناء فهم جديد لـ"حفظ العقل".

العقل في أصل معناه هو القدرة التي تمكن الإنسان من التمييز بين الأشياء، بين الخير والشر، بين الحسن والقبح، بين الصواب والخطأ. وكلمة "عقل" في اللغة العربية، كما في لغات أخرى، تفيد الكبح والتقييد، وعندما يوصف بها الإنسان فالمعنى ينصرف إلى أنّه قوّة كابحة للميول العدوانية مقيّدة للشهوات… إلخ، بعبارة قصيرة العقل معيار يمكن الإنسان من التمييز بين الصواب والخطأ على صعيد المعرفة، وبين الخير والشرّ على صعيد الأخلاق، وبين الحسن والقبح على صعيد الفن والجمال.

ومن خلال التمييز بين الصدق والكذب أو الصواب والخطأ، وبين الخير والشرّ، وبين الحسن والقبح تبرز وظيفة أخرى للعقل تأتي في الحقيقة كنتيجة، وظيفة التمييز بين النافع وغير النافع، بين المفيد وغير المفيد، بين ما يؤدي إلى النجاح وبين ما ينتهي إلى غير نجاح. وهكذا فالنافع في الأصل هو المبني على الصواب والصحّة والخير والحسن. وغير النافع هو المبني على عكس هذه. ذلك هو العقل المعياري، العقل كما يذكره الدِّين ويمجده وتتحدث عنه الأخلاق وتشيد به، وهو الذي كانت له القيمة الأسمى في العصور الماضية.

أمّا اليوم فنحن نشاهد العقل يتحوّل من معيار منطقي وأخلاقي إلى مجرد أداة حتى أصبح يوصف بالعقل الأداتي: مهمّته تحقيق النجاح بدون اعتبار لأي شيء آخر، فأصبح النافع هو الحقّ وليس العكس. وبعبارة أخرى تعرفون مرجعيتها الفلسفية: العقل الأداتي هو العقل الذي يربط الحقّ والخير والحسن بالمنفعة والنجاح، شعاره كلّ ما يحقق النجاح فهو حقّ وصواب وجميل. ومن الطبيعي أن ينساق هذا "العقل الأداتي" مع شعار "الغاية تبرر الوسيلة".

حفظ العقل عملية يجب أن ترمي إلى إعادة الاعتبار للعقل المعياري الذي شعاره: الحقّ هو النافع وليس العكس.

الإنسان حيوان عاقل، بالعقل ينفصل عن الحيوان، ولكن في أي مجال؟ هل في مجال العمليات الحسابية الراقية وحدها التي يعجز الحيوان عن القيام بها، وقد أصبح الحاسوب يقوم بها؟ هل في المهارات اليدوية التي تبتديء من الأكل باليد والفرشاة بدل تناول الطعام بالفم كما يفعل الحيوان؟ الروبورتات تفعل ذلك وأكثر.

3- أعتقد أنّ أوّل واقعة سلوكية يتحقّق بها انفصال الإنسان عن الحيوان هي الواقعة الطبيعية

الأولى المعبر عنها بـ"حفظ النسل". الإنسان وحده يميز بين أولاده وإخوته وآبائه وبين غيرهم. الإنسان وحده يقال عنه إنّه ابن فلان. إذن يمكن القول الإنسان حيوان له نسب. أجل على الإنسان وحده تصدق العبارة التالية "النسب" "الأرحام" "الوالدين" "الحفدة"… إلخ، والإنسان وحده يبني لنفسه "مدينة" فهو حيوان مدني، اجتماعي، سياسي. كلّ ذلك يدخل في مجال الضرورة الثالثة ضرورة "حفظ النسل". ولكي ندرك أهمية هذه الضرورة في عالمنا المعاصرقد يكفي أن نتصوّر ما أصبح بإمكان التقدم العلمي القيام به في مجال البيولوجيا والطب. من أطفال الأنابيب إلى التدخل في الهندسة الوراثية إلى ما يعرف اليوم بالاستنساخ. ومنذ سنين ارتفعت أصوات بضرورة وضع أخلاقيات للبيولوجيا والطب، وأعتقد أنّ ضرورة "حفظ النسل" تتطلب فعلاً وضع أخلاقيات في هذا المجال مجال حفظ النسل.

4- حفظ المال والمقصود: الخيرات المادّية بمختلف أنواعها والتي هي ضرورية لحياة الإنسان. وحفظها يعني حمايتها من الضياع والتبذير والاحتكار وسوء الاستعمال.. إلخ. لقد سنت الديانات السماوية قوانين لذلك بعضها على سبيل الأمر الملزم، وبعضها على سبيل الحث والندب والترغيب. ومعلوم أنّ الديانات السماوية تقرر أنّ المال مال ا، باعتبار أنّه وحده خالق كلّ شيء ومالك كلّ شيء. وغني عن البيان القول إنّ الحث على التوزيع العادل للثروة أمر تشترك فيه الديانات السماوية، وقد شرعت لتطبيقه بأساليب متنوعة ومرنة بحيث يمكن تطبيقها في كلّ عصر حسب معطياته الخاصّة.

وما يتحدى عصرنا اليوم، على صعيد المال والاقتصاد، هو هذه الظاهرة التي يكثر عنها الكلام الآن، ظاهرة العولمة. العولمة ظاهرة حضارية جديدة، وهي كجميع الظواهر الحضارية لها إيجابيات ولها سلبيات. وأخطر سلبياتها في نظرنا هو ذلك المبدأ الاقتصادي الذي تقوم عليه والذي يتلخص في الشعار التالي: "أكثر ما يمكن من الربح بأقل ما يمكن من العمال". ومن هنا ظاهرتان خطيرتان: "تسريح العمال وانتشار البطالة من جهة، وتشغيل الأطفال والنساء في الدول "النامية" بأقل أجر من جهة أخرى".

يمكن القول بصفة عامة إنّ اقتصاد العولمة يتجاهل الأخلاق إن لم يكن يتنكر لها. لقد ظهر ذلك واضحاً في المؤتمر الوزاري لمنظمة التجارة العالمية الذي انعقد بسنغافورة في ديسمبر 1996م، حيث رفضت معظم الوفود مناقشة قضية تشغيل 250 مليون طفل في العالم، أغلبهم بين السادسة والرابعة عشرة من أعمارهم. وقد انتهت المناقشات في هذا الموضوع بالمناداة بضرورة "الفصل بين التجارة والسوق، وبين معايير العمل والقيم الثقافية والاجتماعية".

نحن إذن أمام تنكر صريح للجانب الأخلاقي وللتعاليم الدينية، في ميدان العولمة الاقتصادية. يجب إذن "حافظ المال" والاقتصاد من هذا الاتجاه الخطير الذي يكرس مبدأ المال من أجل المال. ومن هنا ضرورة التفكير في صياغة أخلاق للعولمة يطلب لها الإلزام من ثقافة السلام.

5 ـ حفظ الدّين: وحفظ الدّين من منظور ثقافة السلام يقتضي أوّلاً وقبل كلّ شيء حفظ المنطلق الذي انطلقنا منه: أعني كون الديانات السماوية إنما تقصد إلى مصلحة الناس. ومن هنا يكون حفظ الدّين معناه حفظ الضرورات الأربع السابقة: حفظ النفس والعقل والنسل والمال. وهكذا فإذا كنّا قد وضعنا حفظ الدّين في المرتبة الخامسة فمن أجل أن نجعل من الضرورات الأربع الأولى موضوعاً له، وهل يهدف حفظ الدّين إلى شيء آخر غير حفظ النفس والعقل والمال والنسل وما تفرع عن ذلك؟

ولكي يقوم الدّين بوظيفته هذه يجب حفظه من داء الغلو والتطرّف: التطرّف في الدّين يلغي وظيفة الدّين التي هي حفظ المصالح ويجرّ إلى توظيفه في غير ما وضع له، بل إلى استعماله ضد النفس والعقل والنسل والمال.

تلك في نظرنا هي القيم الأساسية المشتركة بين الديانات السماوية الثلاثة والتي يمكن انطلاقاً منها تشييد ثقافة للسلام، تضمن السلام للإنسان مع نفسه ومع نسله وجيرانه، وتضمن للشعوب والأُمم السلام والعيش المشترك في إطار من التعاون والتضامن.

وأخيراً، دعوني أؤكد: ثقافة السلام هي، أوّلاً وقبل كلّ شيء، ثقافة للسلام مع ا، وبالتالي فهي ثقافة للسلام مع خلقه، أفراداً وجماعات، ثقافة ضد التطرّف سواء بدافع القوّة الغاشمة، قوّة السلاح وأساليب الهيمنة، أو باسم الدِّين، أعني ادعاء احتكار حقيقته.

وإذا كان لكلّ مقام مقال، كما يقال، فإنّ مقامنا هنا في هذه الأيام، وفي هذه القاعة التي رفعت فيه لافتة "ثقافة السلام"، يستحثني على استحضار اسم مدينتين تلقبان في اللغة العربية بلقب "السلام".

أوّلاهما "مدينة السلام"، القدس مهد الديانات السماوية التوحيدية، التي يدعونا تاريخها ومستقبلها للعمل معاً من أجل أن تصبح فعلاً مدينة للسلام: لا تزهق فيها نفس، ولا تنتزع فيها أرض، ولا تشرد فيها عائلة، ولا يهجر عنها ساكن. إنّ ثقافة السلام في الديانات التوحيدية الثلاث يجب أن تنطلق من مدينة السلام: من توحيدها والاشتراك في إدارة شؤونها واحترام حقّ الجميع فيها.

ثاني المدينتين العربيتين اللتين تلقبان في الثقافة العربية بـ"السلام" هي "دار السلام": بغداد التي تتعرض اليوم لتهديدات هي أبعد ما تكون من ثقافة السلام. فلنصلِ جميعاً من أجل حفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال وحفظ الدِّين في "دار السلام"، و"مدينة السلام".►